تفسير سورة الحشر

هى أربع وعشرون آية وهى مدنية . قال القرطبى : فى قول الجميع [١] . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحشر بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ، قال : سورة النضير : يعنى : أنها نزلت فى بنى النضير كما صرح بذلك فى بعض الرّوايات [٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) ﴾

قوله : ﴿ سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ قد تقدّم تفسير هذا فى سورة الحديد . ﴿هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾ هم بنو النضير ، وهم رهط من اليهود من ذرية هارون ، نزلوا المدينة فى فتن بنى إسرائيل انتظارا منهم لمحمد ﷺ ، فغدروا بالنبى ﷺ بعد أن عاهدوه وصاروا عليه مع المشركين ،

(١) القرطبى ٩/ ٦٤٨٠ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٨٣) ومسلم فى التفسير (٣٠٣١ / ٣١).

فحاصرهم رسول ﷺ حتى رضوا بالجلاء ، قال الكلبى : كانوا أوّل من أجلى من أهل الذمّة من جزيرة العرب ، ثم أجلى آخرهم فى زمن عمر بن الخطاب ، فكان جلاؤهم أوّل حشر من المدينة ، وآخر حشر إجلاء عمر لهم . وقيل : إن أوّل الحشر: إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، وآخر الحشر : إخراجهم من خيبر إلى الشام . وقيل : آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر ، وهى الشام . قال عكرمة : من شك أن المحشر يوم القيامة فى الشام فليقرأ هذه الآية ، وأن النبىّ ﷺ قال لهم : « اخرجوا » ، قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » . قال ابن العربى: الحشر : أول وأوسط وآخر ، فالأوّل : إجلاء بنى النضير ، والأوسط : إجلاء أهل خيبر ، والآخر : يوم القيامة.

وقد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المذكورين فى الآية هم بنو النضير ، ولم يخالف فى ذلك إلا الحسن البصرى. فقال: هم بنو قريظة ، وهو غلط ، فإن بنى قريظة ما حشروا ، بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه، فحكم عليهم بأن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتغنم أموالهم ، فقال رسول الله ﷺ لسعد : « لقد حكمت بحكم اللّه من فوق سبعة أرقعة»(١) .

واللام فى ﴿ **لأوّل الحشر** ﴾ متعلقة بـ ﴿ **أخرج** ﴾ ، وهى لام التوقيت كقوله : ﴿ لدلوك الشمس ﴾ [الإسراء : ٧٨] ﴿ **ما ظننتم أن يخرجوا** ﴾ هذا خطاب للمسلمين ، أى ما ظننتم أيها المسلمون أن بنى النضير يخرجون من ديارهم لعزتهم ومنعتهم ، وذلك أنهم كانوا أهل حصون مانعة ، وعقار ونخيل واسعة ، وأهل عدد وعدّة ﴿ **وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من اللّه** ﴾ أى وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس اللّه ، وقوله : ﴿ **مانعتهم** ﴾ خبر مقدّم، و﴿**حصونهم** ﴾ مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر ﴿ **أنهم** ﴾ ، ويجوز أن يكون ﴿ **مانعتهم** ﴾ خبر ﴿ **أنهم** ﴾ و ﴿ **حصونهم** ﴾ فاعل ﴿**مانعتهم** ﴾ ، ورجح الثانى أبو حيان ، والأول أولى ﴿**فأتاهم اللّه من حيث لم يحتسبوا** ﴾ أى أتاهم أمر اللّه من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة ، وهو أنه سبحانه أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلائهم وكانوا لا يظنون ذلك . وقيل: هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف . قاله ابن جريج والسدّى وأبو صالح ، فإنّ قتله أضعف شوكتهم . وقيل : إن الضمير فى ﴿ **أتاهم** ﴾ و ﴿ **لم يحتسبوا** ﴾ للمؤمنين ، أى فأتاهم نصر اللّه من حيث لم يحتسبوا ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ **وقذف فى قلوبهم الرعب** ﴾ فإن قذف الرعب كان فى قلوب بنى النضير ، لا فى قلوب المسلمين . قال أهل اللغة: **الرعب** : الخوف الذى يرعب الصدر ، أى يملؤه ، وقذفه: إثباته فيه . وقيل : كان قذف الرعب فى قلوبهم بقتل سيدهم كعب بن الأشرف ، والأولى عدم تقييده بذلك وتفسيره به ، بل المراد بالرعب

(١) أحمد ٢/ ٢٢ والبخارى فى المغازى (٤١٢١) وفى مناقب الأنصار (٣٨٠٤) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٦٨/ ٦٤) عن أبى سعيد الخدرى.

الذى **قذفه الله فى قلوبهم** : هو الذى ثبت فى الصحيح من قوله ﷺ : « نصرت بالرعب مسيرة شهر»(١).

﴿ **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين** ﴾ وذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم فجعلوا يخربونها من داخل ، والمسلمون من خارج . قال قتادة والضحاك : كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا، واليهود من داخل ليبنوا به ما خرب من حصنهم . قال الزجاج : معنى تخريبها بأيدى المؤمنين : أنهم عرضوها لذلك . قرأ الجمهور : ﴿ **يخربون** ﴾ بالتخفيف . وقرأ الحسن والسلمى ونصر بن عاصم وأبو العالية وأبو عمرو بالتشديد . قال أبو عمرو : إنما اخترت القراءة بالتشديد ؛ لأن الإخراب ترك الشىء خرابا ، وإنما خربوها بالهدم . وليس ما قاله بمسلم ، فإن التخريب والإخراب عند أهل اللغة بمعنى واحد . قال سيبويه : إن معنى فعلت وأفعلت يتعاقبان ، نحو أخربته وخربته وأفرحته وفرحته . واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم . قال الزهرى وابن زيد وعروة بن الزبير : لما صالحهم النبى ﷺ على أن لهم ما أقلت الإبل ، كانوا يستحسنون الخشبة أو العمود فيهدمون بيوتهم ، ويحملون ذلك على إبلهم، ويخرب المؤمنون باقيها . وقال الزهرى أيضا : ﴿ **يخربون بيوتهم** ﴾ بنقض المعاهدة و﴿**أيدى المؤمنين** ﴾ بالمقاتلة ، وقال أبو عمرو : بأيديهم فى تركهم لها وبـ ﴿ **أيدى المؤمنين** ﴾ فى إجلائهم عنها ، والجملة إما مستأنفة لبيان ما فعلوه، أو فى محل نصب على الحال ﴿**فاعتبروا يا أولى الأبصار** ﴾ أى اتعظوا وتدبروا وانظروا فيما نزل بهم يا أهل العقول والبصائر . قال الواحدى : ومعنى الاعتبار : النظر فى الأمور ليعرف بها شىء آخر من جنسها .

﴿ **ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا** ﴾ أى لولا أن كتب الله عليهم الخروج من أوطانهم على ذلك الوجه وقضى به عليهم لعذبهم بالقتل والسبى فى الدنيا كما فعل ببنى قريظة ، والجلاء : مفارقة الوطن ، يقال : جلا بنفسه جلاء ، وأجلاه غيره إجلاء ، والفرق بين الجلاء والإخراج وإن كان معناهما فى الإبعاد واحدا من جهتين : إحداهما : أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد . والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد . الثانى : أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج يكون لجماعة ولواحد ، كذا قال الماوردى ﴿ **ولهم فى الآخرة عذاب النار** ﴾ هذه الجملة مستأنفة غير متعلقة بجواب « لولا» متضمنة لبيان ما يحصل لهم فى الآخرة من العذاب وإن نجوا من عذاب الدنيا . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم ذكره من الجلاء فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ﴿ **بأنهم شاقوا الله ورسوله** ﴾ أى بسبب المشاقة منهم

---

(١) أحمد ١/ ٣٠١ ، ٢/ ٢٢٢، ٢٦٤، ٢٦٨ والبخارى فى التيمم (٣٣٥) وفى الصلاة (٤٣٨) وفى الجهاد (٢٩٧٧) وفى التعبير (٦٩٩٨) وفى الاعتصام (٧٢٧٢) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥/٥٢٣) والترمذى فى السير (١٥٥٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى الغسل ١/ ٢١٠.

للّه ولرسوله بعدم الطاعة والميل مع الكفار ونقض العهد ﴿ **ومن يشاقّ اللّه فإن اللّه شديد العقاب** ﴾ اقتصر هاهنا على مشاقة اللّه ؛ لأن مشاقته مشاقة لرسوله . قرأ الجمهور : ﴿ **يشاق** ﴾ بالإدغام ، وقرأ طلحة بن مصرف ومحمد بن السميقع : «يشاقق » بالفك .

﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن اللّه** ﴾ قال مجاهد : إن بعض المهاجرين وقعوا على قطع النخل فنهاهم بعضهم ، وقالوا : إنما هى مغانم للمسلمين ، وقال الذين قطعوا : بل هو غيظ للعدوّ ، فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطع النخل وتحليل من قطعه من الإثم ، فقال : ﴿ **ما قطعتم من لينة** ﴾ قال قتادة والضحاك : إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات . وقال محمد بن إسحاق : إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة ، فقال بنو النضير وهم أهل الكتاب : يا محمد ألست تزعم أنك نبى تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ؟ وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد فى الأرض ؟ فشق ذلك على رسول اللّه ﷺ ووجد المسلمون فى أنفسهم فنزلت الآية ، ومعنى الآية : أىُّ شىء قطعتم من ذلك أو تركتم فبإذن اللّه ، والضمير فى ﴿ **تركتموها** ﴾ عائد إلى « ما » لتفسيرها باللينة ، وكذا فى قوله : ﴿ **قائمة على أصولها** ﴾ ومعنى على أصولها : أنها باقية على ما هى عليه .

واختلف المفسرون فى تفسير اللينة ، فقال الزهرى ومالك وسعيد بن جبير وعكرمة والخليل : إنها النخل كله إلا العجوة . وقال مجاهد : إنها النخل كله ولم يستثن عجوة ولا غيرها . وقال الثورى : هى كرام النخل . وقال أبو عبيدة : إنها جميع أنواع التمر سوى العجوة والبرنى [١] . وقال جعفر بن محمد : إنها العجوة خاصة . وقيل : هى ضرب من النخل، يقال لتمره اللون : تمره أجود التمر ، وقال الأصمعى : هى الدقل [٢] .

وأصل اللينة : لونة فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، وجمع اللينة : لين . وقيل : ليان، وقرأ ابن مسعود : « ما قطعتم من لينة ولا تركتم قوما على أصولها » أى قائمة على سوقها ، وقرئ : « على أصلها » وقرئ :« قائما على أصوله » ﴿**وليخزى الفاسقين** ﴾ أى ليذلّ الخارجين عن الطاعة ، وهم اليهود ويغيظهم فى قطعها وتركها لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون فى أموالهم كيف شاؤوا من القطع والترك ازدادوا غيظا . قال الزجاج : ﴿ **وليخزى الفاسقين** ﴾ بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المؤمنون كيف أحبوا من قطع وترك ، والتقدير : ﴿ **وليخزى الفاسقين** ﴾ أذن فى ذلك ، يدل على المحذوف قوله : ﴿ **فبإذن اللّه** ﴾ وقد استدلّ بهذه الآية على جواز الاجتهاد وعلى تصويب المجتهدين ، والبحث مستوفى فى كتب الأصول .

﴿ **وما أفاء اللّه على رسوله منهم** ﴾ أى ما ردّه عليه من أموال الكفار ، يقال : فاء يفىء ،

---

(١) البرنى بفتح الباء، وسكون الراء بعدها نون مكسورة وهو تمر ، معرَّب ، أصله : برينك ، أى الحملُ الجيد.
(٢) الدَّقل : التمر الردىء.

إذا رجع ، والضمير فى « منهم » عائد إلى بنى النضير ﴿ **فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب** ﴾ يقال : وجف الفرس والبعير يجف وجفا ، وهو سرعة السير ، وأوجفه صاحبه : إذا حمله على السير السريع ، ومنه قول تميم بن مقبل :

مذاوبد بالبيض الحديد صقالها عن الركب أحيانا إذا الركب أوجفوا

وقال نصيب :

ألا رُبَّ ركب قد قطعت وجيفهم إليك ولولا أنت لم يوجف الركب

و« ما » فى ﴿ **فما أوجفتم** ﴾ نافية . والفاء جواب الشرط إن كانت « ما » فى قوله : ﴿ **ما أفاء اللّه** ﴾ شرطية ، وإن كانت موصولة فالفاء زائدة ، « ومن » فى قوله : ﴿ **من خيل** ﴾ زائدة للتأكيد ، والركاب : ما يركب من الإبل خاصة ، والمعنى : أن ما ردّ اللّه على رسوله من أموال بنى النضير لم تركبوا لتحصيله خيلا ولا إبلا ، ولا تجشمتم لها شقة ولا لقيتم بها حربا ولا مشقة، وإنما كانت من المدينة على ميلين ، فجعل اللّه سبحانه أموال بنى النضير لرسوله ﷺ خاصة لهذا السبب ، فإنه افتتحها صلحا وأخذ أموالها ، وقد كان سأله المسلمون أن يقسم لهم فنزلت الآية ﴿ **ولكنَّ اللّه يسلط رسله على من يشاء** ﴾ من أعدائه ، وفى هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصة لرسول اللّه ﷺ دون أصحابه لكونهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب، بل مشوا إليها مشيا ، ولم يقاسوا فيها شيئا من شدائد الحروب ، ﴿ **واللّه على كل شىء قدير** ﴾ يسلط من يشاء على من أراد ، ويعطى من يشاء ويمنع من يشاء ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ﴿ **ما أفاء اللّه على رسوله من أهل القرى** ﴾ هذا بيان لمصارف الفىء بعد بيان أنه لرسول اللّه ﷺ خاصة ، والتكرير لقصد التقرير والتأكيد ، ووضع ﴿ **أهل القرى** ﴾ موضع قوله : ﴿ **منهم** ﴾ أى من بنى النضير للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببنى النضير وحدهم ، بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول اللّه ﷺ صلحا ولم يوجف عليها المسلمين بخيل ولا ركاب . قيل : و المراد بالقرى : بنو النضير ، وقريظة ، وفدك ، وخيبر ، وقد تكلم أهل العلم فى هذه الآية والتى قبلها ، هل معناهما متفق أو مختلف ؟ فقيل : معناهما متفق كما ذكرنا . وقيل : مختلف، وفى ذلك كلام لأهل العلم طويل .

قال ابن العربى : لا إشكال أنها ثلاثة معان فى ثلاث آيات . أما الآية الأولى وهى قوله : ﴿ **وما أفاء اللّه على رسوله منهم** ﴾ فهى خاصة برسول اللّه ﷺ خالصة له وهى أموال بنى النضير وما كان مثلها ، وأما الآية الثانية وهى قوله : ﴿ **ما أفاء اللّه على رسوله من أهل القرى** ﴾ فهذا كلام مبتدأ غير الأوّل بمستحق غير الأول وإن اشتركت هى والأولى فى أن كل واحدة منهما تضمنت شيئا أفاءه اللّه على رسوله ، واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال ، واقتضت آية الأنفال ، وهى الآية الثالثة أنه حاصل بقتال ، وعريت الآية الثانية ، وهى قوله :

﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ عن ذكر حصوله بقتال أو بغير قتال ، فنشأ الخلاف من ها هنا ، فطائفة قالت : هى ملحقة بالأولى وهى مال الصلح ، وطائفة قالت : هى ملحقة بالثالثة وهى آية الأنفال ، والذين قالوا إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا ، هل هى منسوخة أو محكمة ؟ هذا معنى حاصل كلامه .

وقال مالك : إن الآية الأولى من هذه السورة خاصة برسول الله ﷺ ، والآية الثانية هى فى بنى قريظة ، ويعنى: أن معناها يعود إلى آية الأنفال ، ومذهب الشافعى أن سبيل خمس الفيء سبيل خمس الغنيمة ، وأن أربعة أخماسه كانت للنبى ﷺ وهى بعده لمصالح المسلمين ﴿فلله وللرّسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ المراد بقوله : ﴿لله﴾ أنه يحكم فيه بما يشاء ﴿ وللرسول ﴾ يكون ملكاً له ﴿ ولذى القربى ﴾ وهو بنو هاشم وبنو المطلب ؛لأنهم قد منعوا من الصدقة فجعل لهم حقا فى الفيء . قيل : تكون القسمة فى هذا المال على أن يكون أربعة أخماسه لرسول الله ﷺ ، وخمسه يقسم أخماسا ، للرسول خمس ، ولكل صنف من الأصناف الأربعة المذكورة خمس . وقيل : يقسم أسداسا ، السادس : سهم الله سبحانه ويصرف إلى وجوه القرب ، كعمارة المساجد ونحو ذلك ﴿ كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ أى كيلا يكون الفيء دولة بين الأغنياء دون الفقراء ، والدولة : اسم للشيء يتداوله القوم بينهم ، يكون لهذا مرّة ولهذا مرّة . قال مقاتل : المعنى : أنه يغلب الأغنياء الفقراء فيقسمونه بينهم ، قرأ الجمهور : ﴿ يكون ﴾ بالتحتية ﴿دولة ﴾ بالنصب ، أى كيلا يكون الفيء دولة . وقرأ أبو جعفر والأعرج وهشام وأبو حيان : «تكون » بالفوقية « دولة » بالرفع ، أى كيلا تقع أو توجد دولة ، وكان تامة ، وقرأ الجمهور : ﴿ دولة ﴾ بضم الدال . وقرأ أبو حيوة والسلمى بفتحها، قال عيسى بن عمر ويونس والأصمعى : هما لغتان بمعنى واحد ، وقال أبو عمرو بن العلاء : الدولة بالفتح الذى يتداول من الأموال ، وبالضم الفعل ، وكذا قال أبو عبيدة .

ثم لما بين لهم سبحانه مصارف هذا المال أمرهم بالاقتداء برسوله ﷺ فقال : ﴿ وما آتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ أى ما أعطاكم من مال الغنيمة فخذوه ، وما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه ولا تأخذوه . قال الحسن والسدّى : ما أعطاكم من مال الفيء فاقبلوه ، وما منعكم منه فلا تطلبوه ، وقال ابن جريج : ما آتاكم من طاعتى فافعلوا، وما نهاكم عنه من معصيتى فاجتنبوه . والحق أن هذه الآية عامة فى كل شيء يأتى به رسول الله ﷺ من أمر أو نهى أو قول أو فعل ، وإن كان السبب خاصا فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وكل شيء أتانا به من الشرع فقد أعطانا إياه وأوصله إلينا . وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها . ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم به الرسول وترك ما نهاهم عنه، أمرهم بتقواه وخوفهم شدة عقوبته ، فقال : ﴿ واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ فهو معاقب من لم يأخذ ما آتاه الرسول،

ولم يترك ما نهاه عنه .

وقد أخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، عن عائشة قالت : كانت غزوة بنى النضير وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكان منزلهم ونخلهم فى ناحية المدينة ، فحاصرهم رسول اللّه ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة ، يعنى : السلاح ، فأنزل اللّه فيهم : ﴿**سبح للّه ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ إلى قوله : ﴿ **لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا** ﴾ فقاتلهم النبى ﷺ حتى صالحهم على الإجلاء وجلاهم إلى الشام ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا ، وكان اللّه قد كتب عليهم ذلك ، ولولا ذلك لعذبهم فى الدنيا بالقتل والسبى ، وأما قوله ﴿ **لأول الحشر** ﴾ فكان إجلاؤهم ذلك أول حشر فى الدنيا إلى الشام [١] . وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث ، عن ابن عباس قال : من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية : ﴿ **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر**﴾ قال لهم رسول اللّه ﷺ يومئذ : « أخرجوا » ، قالوا : إلى أين ؟ قال : «إلى أرض المحشر » . وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر ، عن ابن عباس قال : كان النبىّ ﷺ قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ ، فأعطوه ما أراد منه، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم، وأن يسيروا إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيرا وسقاء [٢] . وفى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر ، أن رسول اللّه ﷺ حرق نخل بنى النضير وقطع وهى البويرة ، ولها يقول حسان :

وهان على سراة بنى لؤىّ حريق بالبويرة [٣] مستطير

فأنزل اللّه : ﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن اللّه وليخزى الفاسقين** ﴾ [٤] . وأخرج الترمذى وحسنه ، والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : اللينة : النخلة ﴿ **وليخزى الفاسقين**﴾ قال : استنزلوهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحكّ فى صدورهم ، فقال المسلمون : قد قطعنا بعضا وتركنا بعضا ، فلنسألنّ رسول اللّه ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر، و هل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل اللّه:

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٨٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٣/ ١٧٨ .

(٢) ابن جرير ٢٨/ ٢٢ .

(٣) البويرة : الحفرة الصغيرة وهى اسم لموضع نخل بنى النضير .

(٤) البخارى فى المغازى (٤٠٣١) وفى التفسير (٤٨٨٤) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٤٦/ ٢٩) وأبو داود فى الجهاد (٢٦١٥) والترمذى فى التفسير (٣٣٠٢) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٤٤) والنسائى فى التفسير (٥٩٣) .

﴿ما قطعتم من لينة﴾ الآية [١] . وفى الباب أحاديث ، والكلام فى صلح بنى النضير مبسوط فى كتب السير . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله ومما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، وكانت لرسول الله ﷺ خاصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عدّة فى سبيل الله [٢] .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ فجعل ما أصاب رسول الله ﷺ يحكم فيه ما أراد ، ولم يكن يومئذ خيل ولا ركاب يوجف بها . قال : والإيجاف أن يوضعوا السير ، وهى لرسول الله ﷺ ، فكان من ذلك خيبر وفدك وقرى عرينة . وأمر رسول ﷺ أن يعمد لينبع ، فأتاها رسول الله ﷺ فاحتواها كلها، فقال ناس : هلا قسمها الله ؟ فأنزل الله عذره فقال : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ الآية. وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : كان ما أفاء الله على رسوله من خيبر نصف لله ورسوله ، والنصف الآخر للمسلمين ، فكان الذى لله ورسوله من ذلك الكثيبة والوطيح وسلالم ووحدوه ، وكان الذى للمسلمين الشقّ ، والشقّ : ثلاثة عشر سهما ، ونطاة خمسة أسهم ، ولم يقسم رسول الله ﷺ من خيبر لأحد من المسلمين إلا لمن شهد الحديبية ، ولم يأذن رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين تخلف عنه عند مخرجه إلى الحديبية أن يشهد معه خيبر إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى .

وأخرج أبو داود وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : كان لرسول الله ﷺ صفايا فى النضير وخيبر وفدك، فأما بنو النضير فكانت حبسا لنوائبه ، وأما فدك فكانت لابن السبيل ، وأما خيبر فجزأها ثلاثة أجزاء : قسم منها جزءين بين المسلمين ، وحبس جزءًا لنفسه ولنفقة أهله ، فما فضل عن نفقة أهله ردها على فقراء المهاجرين [٣] . وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن أبى شيبة ، وابن زنجويه فى الأموال وعبد بن حميد وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال : ما على وجه الأرض مسلم إلا وله فى هذا الفىء حق إلا ما ملكت أيمانكم. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : « لعن الله الواشمات والمستوشمات [٤] ، والمتنمصات [٥]

(١) الترمذى فى التفسير (٣٣٠٣) وقال : « حسن غريب » والنسائى فى التفسير (٥٩٤) وإسناده صحيح على شرط البخارى .

(٢) البخارى فى فرض الخمس (٣٠٩٤) وفى المغازى (٤٠٣٣) وفى النفقات (٥٣٥٨) وفى الفرائض (٦٧٢٨) وفى الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٠٥) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٥٧/ ٤٨) وأبو داود فى الخراج والإمارة والفىء (٢٩٦٣).

(٣) أبو داود فى الخراج والإمارة والفىء (٢٩٦٧) .

(٤) الوشم : غرز الإبرة فى البدن ، والمستوشمات : التى سألتها ذلك .

(٥) النامصة : هى التى تزيل الشعر من الوجه ، والمتنمصة : هى التى تطلب فعل ذلك بها .

والمتفلجات [١] للحسن المغيرات لخلق الله » فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أمّ يعقوب ، فجاءت ابن مسعود، فقالت : بلغنى أنك لعنت كيت وكيت قال : ومالى لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو فى كتاب الله ؟ قالت : لقد قرأت ما بين الدفتين فما وجدت فيه شيئا من هذا ، قال : لئن كنت قرأته لقد وجدته ، أما قرأت : ﴿ **ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ قالت : بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه [٢] .

﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠)** ﴾

قوله : ﴿ **للفقراء** ﴾ قيل : هو بدل من ﴿ **لذى القربى** ﴾ وما عطف عليه ، ولا يصح أن يكون بدلا من الرسول وما بعده لئلا يستلزم وصف رسول الله ﷺ بالفقر . وقيل : التقدير : كى لا يكون دولة ، ولكن يكون للفقراء . وقيل : التقدير: اعجبوا للفقراء . وقيل : التقدير : والله شديد العقاب للفقراء ، أى شديد العقاب للكفار بسبب الفقراء . وقيل : هو عطف على ما مضى بتقدير الواو كما تقول : المال لزيد لعمرو لبكر ، والمراد بـ﴿ **المهاجرين** ﴾ : الذين هاجروا إلى رسول الله ﷺ رغبة فى الدين ونصرة له . قال قتادة : هؤلاء المهاجرون هم الذين تركوا الديار والأموال والأهلين ، ومعنى ﴿ **أخرجوا من ديارهم** ﴾ : أن كفار مكة أخرجوهم منها واضطروهم إلى الخروج ، وكانوا مائة رجل ﴿ **يبتغون فضلا من الله ورضوانا** ﴾ أى يطلبون منه أن يتفضل عليهم بالرزق فى الدنيا ، وبالرضوان فى الآخرة ﴿ **وينصرون الله ورسوله** ﴾ بالجهاد للكفار ، وهذه الجملة معطوفة على يبتغون ، ومحل الجملتين النصب على الحال ، الأولى : مقارنة ، والثانية : مقدّرة ، أى ناوين لذلك ، ويجوز أن تكون حالا مقارنة ، لأن خروجهم على تلك الصفة نصرة لله ورسوله ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إليهم من حيث اتصافهم بتلك الصفات ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **هم الصادقون** ﴾ أى الكاملون فى

---

(١) المتفلجات للحسن : المراد مفلجات الأسنان بأن تبرد ما بين أسنانها ، الثنايا والرباعيات ، وهو من الفلج ، وتفعل ذلك العجوز ومن قاربتها فى السن إظهارا للصغر ، وحسن الأسنان .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٨٦) ومسلم فى اللباس والزينة (٢١٢٥/ ١٢٠) و الترمذى فى الأدب (٢٧٨٢) وقال: « حسن صحيح » والنسائى فى الزينة ٨/ ١٤٦ .

الصدق الراسخون فيه.

ثم لما فرغ من مدح المهاجرين مدح الأنصار فقال : ﴿ **والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم** ﴾ المراد بالدار: المدينة، وهى دار الهجرة ، ومعنى تبوّئهم الدار والإيمان : أنهم اتخذوها مباءة ، أى تمكنوا منهما تمكنا شديدا والتبوّؤ فى الأصل إنما يكون للمكان ، ولكنه جعل الإيمان مثله لتمكنهم فيه تنزيلا للحال منزلة المحل . وقيل : إن الإيمان منصوب بفعل غير الفعل المذكور، والتقدير : واعتقدوا الإيمان أو وأخلصوا الإيمان كذا قال أبو على الفارسى . ويجوز أن يكون على حذف مضاف، أى تبوؤوا الدار وموضع الإيمان ، ويجوز أن يكون تبوؤوا متضمنا لمعنى لزموا . والتقدير : لزموا الدار والإيمان ، ومعنى ﴿ من **قبلهم** ﴾ : من قبل هجرة المهاجرين فلا بدّ من تقدير مضاف ؛ لأن الأنصار إنما آمنوا بعد إيمان المهاجرين ، والموصول مبتدأ وخبره : ﴿ **يحبون من هاجر إليهم** ﴾ وذلك لأنهم أحسنوا إلى المهاجرين وأشركوهم فى أموالهم ومساكنهم ﴿ **ولا يجدون فى صدورهم حاجة** ﴾ أى لا يجد الأنصار فى صدورهم حسدا وغيظا وحزازة ﴿**مما أوتوا** ﴾ أى مما أوتى المهاجرون دونهم من الفىء ، بل طابت أنفسهم بذلك ، وفى الكلام مضاف محذوف ، أى لا يجدون فى صدورهم مسّ حاجة أو أثر حاجة ، وكل ما يجده الإنسان فى صدره مما يحتاج إليه فهو حاجة ، وكان المهاجرون فى دور الأنصار ، فلما غنم النبىّ ﷺ بنى النضير دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين من إنزالهم إياهم فى منازلهم، وإشراكهم فى أموالهم ، ثم قال : « إن أحببتم قسمت ما أفاء اللّه علىّ من بنى النضير بينكم وبين المهاجرين ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم والمشاركة لكم فى أموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم ذلك وخرجوا من دياركم » ، فرضوا بقسمة ذلك فى المهاجرين وطابت أنفسهم ، ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ الإيثار : تقديم الغير على النفس فى حظوظ الدنيا رغبة فى حظوظ الآخرة، يقال :آثرته بكذا، أى خصصته به، والمعنى: ويقدّمون المهاجرين على أنفسهم فى حظوظ الدنيا ﴿ **ولو كان بهم خصاصة** ﴾ أى حاجة وفقر ، والخصاصة مأخوذة من خصاص البيت ، وهى الفرج التى تكون فيه، وجملة : ﴿ **ولو كان بهم خصاصة** ﴾ فى محل نصب على الحال . وقيل : إن الخصاصة مأخوذة من الاختصاص، وهو الانفراد بالأمر، فالخصاصة الانفراد بالحاجة ، ومنه قول الشاعر :

إن الربيع إذا يكون خصاصة عاش السقيم به وأثرى المقتر

﴿ **ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **يوق** ﴾ بسكون الواو وتخفيف القاف من الوقاية . وقرأ ابن أبى عبلة وأبو حيوة بفتح الواو وتشديد القاف ، وقرأ الجمهور : ﴿ شحّ نفسه ﴾ بضم الشين ، وقرأ ابن عمرو وابن أبى عبلة بكسرها ، والشحّ :

البخل مع حرص، كذا فى الصحاح . وقيل : الشحّ أشد من البخل . قال مقاتل : شح نفسه: حرص نفسه . قال سعيد بن جبير : شحّ النفس هو أخذ الحرام ومنع الزكاة . قال ابن زيد : من لم يأخذ شيئا نهاه اللّه عنه ولم يمنع شيئا أمره اللّه بأدائه فقد وقى شحّ نفسه . قال طاووس : البخل أن يبخل الإنسان بما فى يده ، والشحّ أن يشحّ بما فى أيدى الناس ، يحب أن يكون له ما بأيديهم بالحلال والحرام لا يقنع ، وقال ابن عيينة : الشحّ الظلم. وقال الليث : ترك الفرائض وانتهاك المحارم . والظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم شحّ النفس بشىء من الأشياء التى يقبح الشحّ إلى النفس ، والإشارة بقوله : ﴿ **فأولئك** ﴾ إلى« من » باعتبار معناها ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿**والذين جاؤوا من بعدهم** ﴾ وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة . وقيل: هم الذين هاجروا بعد ما قوى الإسلام ، والظاهر شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة المتأخر إسلامهم فى عصر النبوة ، ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوة إلى يوم القيامة ؛ لأنه يصدق على الكلّ أنهم جاؤوا بعد المهاجرين الأوّلين والأنصار ، والموصول مبتدأ وخبره : ﴿**يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان** ﴾ ويجوز أن يكون الموصول معطوفا على قوله : ﴿ **والذين تبوّؤوا الدار والإيمان** ﴾ فيكون ﴿ **يقولون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنف لا محل له ، والمراد بالأخوّة هنا : أخوة الدّين ، أمرهم اللّه أن يستغفروا لأنفسهم ولمن تقدّمهم من المهاجرين والأنصار ﴿**ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا** ﴾ أى غشا وبغضا وحسدا.

أمرهم اللّه سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من اللّه سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغلّ للذين آمنوا على الإطلاق ، فيدخل فى ذلك الصحابة دخولا أوليا ؛ لكونهم أشرف المؤمنين ، ولكون السياق فيهم ، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم ويطلب رضوان اللّه لهم فقد خالف ما أمره اللّه به فى هذه الآية . فإن وجد فى قلبه غلا لهم فقد أصابه نــزغ من الشيطان وحلّ به نصيب وافر من عصيان اللّه بعداوة أوليائه ، وخير أمة نبيه ﷺ وانفتح له باب من الخذلان يعذبه على نار جهنم إن لم يتدارك نفسه باللجوء إلى اللّه سبحانه والاستغاثة به، بأن ينزع عن قلبه ما طرقه من الغلّ لخير القرون وأشرف هذه الأمة ، فإن جاوز ما يجده من الغلّ إلى شتم أحد منهم ، فقد انقاد للشيطان بزمام ووقع فى غضب اللّه وسخطه، وهذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلى بمعلم من الرافضة ، أو صاحب من أعداء خير الأمة الذين تلاعب بهم الشيطان ، وزين لهم الأكاذيب المختلفة ، والأقاصيص المفتراة والخرافات الموضوعة، وصرفهم عن كتاب اللّه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعن سنة رسول اللّه ﷺ المنقولة إلينا بروايات الأئمة الأكابر فى كل عصر من العصور ، فاشتروا الضلالة بالهدى ، واستبدلوا الخسران العظيم بالربح الوافر ، وما زال الشيطان الرجيم ينقلهم من منزلة

إلى منزلة ، ومن رتبة إلى رتبة حتى صاروا أعداء كتاب اللّه وسنة رسوله وخير أمته وصالحى عباده وسائر المؤمنين ، وأهملوا فرائض اللّه وهجروا شعائر الدين ، وسعوا فى كيد الإسلام وأهله كل السعى ، ورموا الدين وأهله بكل حجر ومدر ، واللّه من ورائهم محيط . ﴿ **ربنا إنك رؤوف رحيم** ﴾ أى كثير الرأفة والرحمة بليغهما لمن يستحق ذلك من عبادك .

وقد أخرج البخارى عن عمر بن الخطاب أنه قال : أوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم [١] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : أتى رجل رسول اللّه ﷺ فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهد ؛ فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا فقال : « ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه اللّه » ، فقال رجل من الأنصار ، وفى رواية : فقال أبو طلحة الأنصارى : أنا يا رسول اللّه ، فذهب به إلى أهله ، فقال لامرأته : أكرمى ضيف رسول اللّه ألا تدخريه شيئا ، قالت : واللّه ما عندى إلا قوت الصبية قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوّميهم وتعالى فأطفئى السراج ، ونطوى بطوننا الليلة لضيف رسول اللّه ﷺ ، ففعلت ، ثم غدا الضيف على النبىّ ﷺ فقال: « لقد عجب اللّه الليلة من فلان وفلانة. وأنزل فيهما : ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ » [٢] . وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال : أهدى إلى رجل من أصحاب رسول اللّه ﷺ رأس شاة فقال : إن أخى فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا ، فبعث به إليه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول ، فنزلت فيهم : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ [٣] .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود ؛ أن رجلا قال : إنى أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : وما ذاك ؟ قال : إنى سمعت الله يقول : ﴿ **ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج منى شىء ، فقال له ابن مسعود : ليس ذاك بالشحّ ولكنه البخل ولا خير فى البخل ، وإن الشحّ الذى ذكره الله فى القرآن أن تأكل مال أخيك ظلما . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عمر فى الآية قال : ليس الشح أن يمنع الرجل ماله، ولكنه البخل وإنه لشرّ ، إنما الشحّ أن تطمح عين الرجل إلى ما ليس له . وأخرج ابن المنذر عن على بن أبى طالب قال :

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٨٨).

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٨٩) ومسلم فى الأشربة (٢٠٥٤/ ١٧٢) والترمذى فى التفسير (٣٣٠٤) وقال : «حسن صحيح » . وقال الذهبى : «عبيد الله ضعفوه » .

(٣)صححه الحاكم ٢/ ٤٨٤ والبيهقى فى الشعب (٣٢٠٤).

من أدى زكاة ماله فقد وقى شحّ نفسه . وأخرج الحكيم الترمذى وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما محق الإسلام محق الشحّ شيء قط » (١) . وأخرج أحمد، والبخارى فى الأدب ومسلم والبيهقى عن جابر بن عبد اللّه؛ أن رسول اللّه قال : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » (٢) . وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذم الشح .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال : الناس على ثلاث منازل قد مضت منزلتان وبقيت منزلة ، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التى بقيت ، ثم قرأ : ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم** ﴾ الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى المصاحف ، وابن مردويه عن عائشة قالت : أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبىّ ﷺ فسبوهم ، ثم قرأت هذه الآية : ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه سمع رجلا وهو يتناول بعض المهاجرين فقرأ عليه: ﴿ **للفقراء المهاجرين** ﴾ الآية . ثم قال : هؤلاء المهاجرون، أفمنهم أنت ؟ قال : لا ، ثم قرأ عليه : ﴿**والذين تبوؤوا الدار والإيمان**﴾ الآية . ثم قال : هؤلاء الأنصار ، أفأنت منهم ؟ قال : لا ، ثم قرأ عليه : ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم** ﴾ الآية . ثم قال : أفمن هؤلاء أنت ؟ قال : أرجوا، قال : ليس من هؤلاء من سبّ هؤلاء .

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ**

---

(٤) أبو يعلى (٣٤٨٨) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠٧/١ : « فيه على بن أبى سارة وهو ضعيف » .
(٥) أحمد ٣٢٣/٣ ومسلم فى البر والصلة والآداب (٥٦/٢٥٧٨) والبيهقى فى الشعب (١٠٨٣٢) .
الكتب .

بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)

لما فرغ سبحانه من ذكر الطبقات الثلاث من المؤمنين ، ذكر ما جرى بين المنافقين واليهود من المقاولة لتعجيب المؤمنين من حالهم ، فقال : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا** ﴾ والخطاب لرسول اللّه، أو لكل من يصلح له ، والذين نافقوا هم عبد اللّه بن أبىّ وأصحابه ، وجملة : ﴿ **يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ مستأنفة لبيان المتعجب منه ، والتعبير بالمضارع ؛ لاستحضار الصورة ، أو للدلالة على الاستمرار ، وجعلهم إخوانا لهم لكون الكفر قد جمعهم ، وإن اختلف نوع كفرهم فهم إخوان فى الكفر، واللام فى ﴿ **لإخوانهم** ﴾ هى لام التبليغ ، وقيل: هو من قول بنى النضير لبنى قريظة، والأوّل أولى ؛ لأن بنى النضير وبنى قريظة هم يهود، والمنافقون غيرهم ، واللام فى قوله : ﴿ **لئن أخرجتم**﴾ هى الموطئة للقسم ، أى واللّه لئن أخرجتم من دياركم ﴿ **لنخرجن معكم** ﴾ هذا جواب القسم ، أى لنخرجن من ديارنا فى صحبتكم ﴿ **ولا نطيع فيكم** ﴾ أى فى شأنكم ، ومن أجلكم ﴿ **أحدا** ﴾ ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم وإن طال الزمان ، وهو معنى قوله : ﴿ **أبدا** ﴾ . ثم لما وعدوهم بالخروج معهم وعدوهم بالنصرة لهم ، فقالوا : ﴿ **وإن قوتلتم لننصرنكم** ﴾ على عدوّكم ، ثم كذبهم سبحانه فقال : ﴿ **واللّه يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنصرة لهم .

ثم لما أجمل كذبهم فيما وعدوا به فصّل ما كذبوا فيه فقال : ﴿ **لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم** ﴾ وقد كان الأمر كذلك ، فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود وهم بنو النضير ومن معهم ، ولم ينصروا من قوتل من اليهود وهم بنو قريظة، وأهل خيبر ﴿ **ولئن نصروهم** ﴾ أى لو قدّر وجود نصرهم إياهم ؛ لأن ما نفاه اللّه لا يجوز وجوده . قال الزجاج : معناه : لو قصدوا نصر اليهود ﴿ **ليولنّ الأدبار**﴾ منهزمين ﴿ **ثم لا ينصرون**﴾ يعنى: اليهود لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصرهم ، وهم المنافقون . وقيل : يعنى : لا يصير المنافقون منصورين بعد ذلك ، بل يذلهم اللّه ولا ينفعهم نفاقهم . وقيل : معنى الآية : لا ينصرونهم طائعين ولئن نصروهم مكرهين ليولنّ الأدبار ، وقيل : معنى ﴿ **لا ينصرونهم** ﴾ : لا يدومون على نصرهم ، والأوّل أولى ، ويكون من باب قوله : ﴿ ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : ٢٨] ﴿ **لأنتم أشدّ رهبة فى صدورهم من اللّه** ﴾ أى لأنتم يا معاشر المسلمين أشدّ خوفا وخشية فى صدور المنافقين ، أو صدور اليهود ، أو صدور الجميع من اللّه ، أى من رهبة اللّه. والرهبة هنا بمعنى : المرهوبية ؛ لأنها مصدر من المبنى للمفعول، وانتصابها على التمييز ﴿**ذلك بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ أى ما ذكر من الرهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم لشىء من الأشياء ولو كان لهم فقه لعلموا أن اللّه سبحانه هو الذى سلطكم عليهم،

فهو أحقّ بالرهبة منه دونكم .

ثم أخبر سبحانه بمزيد فشلهم وضعف نكايتهم فقال : ﴿ **لا يقاتلونكم جميعا** ﴾ يعنى : لا يبرز اليهود والمنافقون مجتمعين لقتالكم ولا يقدرون على ذلك ﴿ **إلا فى قرى محصنة** ﴾ بالدروب والدور ﴿ **أو من وراء جدر** ﴾ أى من خلف الحيطان التى يستترون بها لجبنهم ورهبتهم . قرأ الجمهور : ﴿**جدر**﴾ بالجمع ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن وابن كثير وأبو عمرو : «جدار » بالإفراد واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم لأنها موافقة لقوله : ﴿ **قرى محصنة**﴾ وقرأ بعض المكيين : « جدر » بفتح الجيم وإسكان الدال ، وهى لغة فى الجدار ﴿ **بأسهم بينهم شديد** ﴾ أى بعضهم غليظ فظ على بعض ، وقلوبهم مختلفة ، ونياتهم متباينة ، قال السدّى : المراد : اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد . وقال مجاهد : ﴿ **بأسهم بينهم شديد** ﴾ بالكلام والوعيد ليفعلن كذا ، والمعنى : أنهم إذا انفردوا نسبوا أنفسهم إلى الشدة والبأس ، وإذا لاقوا عدوّا ذلوا وخضعوا وانهزموا . وقيل : المعنى : أن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد ، وإنما ضعفهم بالنسبة إليكم لما قذف اللّه فى قلوبهم من الرعب ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ **تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى** ﴾ فإنه يدل على أن اجتماعهم إنما هو فى الظاهر مع تخالف قلوبهم فى الباطن ، وهذا التخالف هو البأس الذى بينهم الموصوف بالشدة ، ومعنى ﴿**شتى** ﴾ : متفرقة ، قال مجاهد : يعنى : اليهود والمنافقين تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، وروى عنه أيضا أنه قال: المراد : المنافقون . وقال الثورى : هم المشركون وأهل الكتاب . قال قتادة : تحسبهم جميعا ، أى مجتمعين على أمر ورأى ، وقلوبهم شتى متفرقة ، فأهل الباطل مختلفة آراؤهم مختلفة شهادتهم مختلفة أهواؤهم، وهم مجتمعون فى عداوة أهل الحق . وقرأ ابن مسعود : « وقلوبهم أشت » أى أشد اختلافا ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ أى ذلك الاختلاف والتشتت بسبب أنهم قوم لا يعقلون شيئا ولو عقلوا لعرفوا الحقّ واتبعوه .

﴿ **كمثل الذين من قبلهم** ﴾ أى مثلهم كمثل الذين من قبلهم ، والمعنى : أن مثل المنافقين واليهود كمثل الذين من قبلهم من كفار المشركين ﴿ **قريبا** ﴾ يعنى : فى زمان قريب ، وانتصاب ﴿ **قريبا** ﴾ على الظرفية ، أى يشبهونهم فى زمن قريب . وقيل : العامل فيه ﴿ **ذاقوا** ﴾ ، أى ذاقوا فى زمن قريب ، ومعنى ﴿ **ذاقوا وبال أمرهم** ﴾ : أى سوء عاقبة كفرهم فى الدنيا بقتلهم يوم بدر ، وكان ذلك قبل غزوة بنى النضير بستة أشهر ، قاله مجاهد وغيره . وقيل : المراد : بنو النضير حيث أمكن اللّه منهم ، قاله قتادة . وقيل : قتل بنى قريظة ، قاله الضحاك . وقيل: هو عام فى كل من انتقم اللّه منه بسبب كفره، والأول أولى ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ أى فى الآخرة.

ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلا آخر فقال : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر** ﴾ أى مثلهم فى تخاذلهم وعدم تناصرهم ، فهو إما خبر مبتدأ محذوف ، أو خبر آخر للمبتدأ المقدّر قبل قوله : ﴿ **كمثل الذين من قبلهم** ﴾ على تقدير حذف حرف العطف كما تقول : أنت عاقل، أنت عالم ، أنت كريم . وقيل : المثل الأوّل :خاص باليهود ، والثانى : خاص بالمنافقين . وقيل : المثل الثانى بيان للمثل الأوّل . ثم بين سبحانه وجه الشبه فقال : ﴿ **إذ قال للإنسان اكفر**﴾ أى أغراه بالكفر وزينه له وحمله عليه ، والمراد بالانسان هنا : جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان . وقيل: هو عابد كان فى بنى إسرائيل حمله الشيطان على الكفر فأطاعه ﴿ **فلما كفر قال إنى برىء منك** ﴾ أى فلما كفر الإنسان مطاوعة للشيطان ، وقبولا لتزيينه قال الشيطان : إنى برىء منك ، وهذا يكون منه يوم القيامة ، وجملة : ﴿**إنى أخاف اللّه رب العالمين** ﴾ تعليل لبراءته من الإنسان بعد كفره . وقيل : المراد بالإنسان هنا : أبو جهل ، والأوّل أولى . قال مجاهد : المراد بالإنسان هنا : جميع الناس فى غرور الشيطان إياهم . قيل : وليس قول الشيطان: ﴿ **إنى أخاف اللّه** ﴾ على حقيقته ، إنما هو على وجه التبرّى من الإنسان فهو تأكيد لقوله :﴿ **إنى برىء منك** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **إنى**﴾ بإسكان الياء ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتحها ﴿ **فكان عاقبتهما أنهما فى النار** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿**عاقبتهما** ﴾ بالنصب على أنه خبر كان، واسمها ﴿ **أنهما فى النار** ﴾ وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد بالرفع على أنها اسم كان ، والخبر ما بعده ، والمعنى : فكان عاقبة الشيطان وذلك الإنسان الذى كفر أنهما صائران إلى النار ﴿ **خالدين فيها** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **خالدين**﴾ بالنصب على الحال ، وقرأ ابن مسعود والأعمش وزيد بن علىّ وابن أبى عبلة : « خالدان » على أنه خبر « أن » والظرف متعلق به ﴿ **وذلك جزاء الظالمين** ﴾ أى الخلود فى النار جزاء الظالمين ، ويدخل هؤلاء فيهم دخولا أوليا .

ثم رجع سبحانه إلى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا اللّه** ﴾ أى اتقوا عقابه بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه ﴿ **ولتنظر نفس ما قدمت لغد** ﴾ أى لتنظر أى شىء قدمت من الأعمال ليوم القيامة ، والعرب تكنى عن المستقبل بالغد . وقيل: ذكر الغد تنبيها على قرب الساعة ﴿ **واتقوا اللّه**﴾ كرّر الأمر بالتقوى للتأكيد ﴿**إن اللّه خبير بما تعملون** ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ، فهو مجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرّا فشرّ ، ﴿**ولا تكونوا كالذين نسوا اللّه** ﴾ أى تركوا أمره . أو ما قدروه حق قدره ، أو لم يخافوه، أو جميع ذلك ﴿**فأنساهم أنفسهم** ﴾ أى جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له ، فلم يشتغلوا بالأعمال التى تنجيهم من العذاب ، ولم يكفوا عن المعاصى التى توقعهم فيه ، ففى الكلام مضاف محذوف ، أى أنساهم حظوظ أنفسهم . قال سفيان : نسوا حق اللّه فأنساهم حق أنفسهم . وقيل : نسوا اللّه فى الرخاء فأنساهم أنفسهم فى الشدائد ﴿ **أولئك هم الفاسقون**﴾ أى الكاملون فى الخروج عن طاعة اللّه . ﴿ **لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة**﴾ فى

الفضل والرتبة ، والمراد : الفريقان على العموم ، فيدخل فى فريق أهل النار من نسى الله منهم دخولا أوّليا ، ويدخل فى فريق أهل الجنة الذين اتقوا دخولا أوّليا ؛ لأن السياق فيهم وقد تقدّم الكلام فى معنى مثل هذه الآية فى سورة المائدة ، وفى سورة السجدة ، وفى سورة ص، ثم أخبر سبحانه وتعالى عن أصحاب الجنة بعد نفى التساوى بينهم وبين أهل النار فقال : ﴿**أصحاب الجنة هم الفائزون**﴾ أى الظافرون بكلّ مطلوب الناجون من كلّ مكروه .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا** ﴾ قال : عبد الله بن أبى ابن سلول ، ورفاعة بن تابوت ، وعبد الله بن نبتل ، وأوس بن قيظى ، وإخوانهم بنى النضير . وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر ، وأبو نعيم فى الدلائل عنه ؛ أن رهطا من بنى عوف بن الحارث منهم عبد الله بن أبى ابن سلول ، ووديعة بن مالك ، وسويد وداعس بعثوا إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لا نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ؛ فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكفّ عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة ، ففعل فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعير فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله : ﴿ **تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى**﴾ قال: هم المشركون .

وأخرج عبد الرزاق وابن راهويه ، وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب ، عن علىّ بن أبى طالب ؛ أن رجلا كان يتعبد فى صومعة وأن امرأة كان لها إخوة ، فعرض لها شىء فأتوه بها فزينت له نفسه فوقع عليها فحملت ، فجاءه الشيطان فقال : اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت فقتلها ودفنها ، فجاؤوه فأخذوه فذهبوا به ، فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال : إنى أنا الذى زينت لك فاسجد لى سجدة أنجيك ، فسجد له . فذلك قوله : ﴿**كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر** ﴾ الآية[1]. قلت : وهذا لا يدلّ على أن هذا الإنسان هو المقصود بالآية ، بل يدّل على أنه من جملة من تصدق عليه . وقد أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس بأطول من هذا ، وليس فيه ما يدلّ على أنه المقصود بالآية . وأخرجه بنحوه ابن جرير عن ابن مسعود . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **كمثل الشيطان** ﴾ قال : ضرب الله مثل الكفار والمنافقين الذين كانوا على عهد النبىّ ﷺ ﴿ **كمثل الشيطان إذا قال للإنسان اكفر**﴾ .

---

(١) ابن جرير ٢٨/ ٣٣ وصححه الحاكم ٢/ ٤٨٤ ، ٤٨٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٥٠٦٧) .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة وأهل النار ، وبين عدم استوائهم فى شىء من الأشياء ذكر تعظيم كتابه الكريم، وأخبر عن جلالته ، وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب وترق له الأفئدة، فقال : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية اللّه** ﴾ أى من شأنه وعظمته وجودة ألفاظه وقوة مبانيه وبلاغته واشتماله على المواعظ التى تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة فى الأرض لرأيته مع كونه فى غاية القسوة وشدّة الصلابة وضخامة الجرم خاشعا متصدعا ، أى متشققا من خشية اللّه سبحانه حذرا من عقابه وخوفا من ألا يؤدى ما يجب عليه من تعظيم كلام اللّه ، وهذا تمثيل وتخييل يقتضى علوّ شأن القرآن وقوة تأثيره فى القلوب ويدلّ على ذلك قوله : ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾ فيما يجب عليهم التفكر فيه ليتعظوا بالمواعظ ، وينزجروا بالزواجر، وفيه توبيخ وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن ولا اتعظوا بمواعظه ، ولا انزجروا بزواجره ، والخاشع : الذليل المتواضع . وقيل : الخطاب للنبىّ ﷺ ، أى لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل ثابت لما ثبت ولتصدع من نزوله عليه ، وقد أنزلناه عليك وثبتناك له وقويناك عليه ، فيكون على هذا من باب الامتنان على النبىّ ﷺ ؛ لأن اللّه سبحانه ثبته لما لا تثبت له الجبال الرواسى .

ثم أخبر سبحانه بربوبيته وعظمته . فقال : ﴿ **هو اللّه الذى لا إله إلا هو** ﴾ وفى هذا تقرير للتوحيد ودفع للشرك ﴿**عالم الغيب والشهادة** ﴾ أى عالم ما غاب من الإحساس وما حضر ، وقيل : عالم السرّ والعلانية . وقيل : ما كان وما يكون . وقيل : الآخرة والدنيا ، وقدّم الغيب على الشهادة ؛ لكونه متقدّما وجودا ﴿ **هو الرحمن الرحيم** ﴾ قد تقدم تفسير هذين الاسمين ﴿**هو الله الذى لا إله إلا هو** ﴾ كرره للتأكيد والتقرير لكون التوحيد حقيقا بذلك ﴿**الملك القدوس**﴾ أى الطاهر من كل عيب المنزه عن كل نقص، والقدس بالتحريك فى لغة أهل الحجاز: السطل ؛ لأنه يتطهر به ، ومنه القادوس لواحد الأوانى التى يستخرج بها الماء ، قرأ الجمهور : ﴿**القدوس** ﴾ بضم القاف ، وقرأ أبو ذرّ وأبو السمال بفتحها ، وكان سيبويه يقول : سبوح قدوس بفتح أوّلهما ، وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائى أعرابيا فصيحا يقرأ : «القدوس » بفتح القاف . قال ثعلب : كل اسم على فعول فهو مفتوح الأوّل

إلا السبوح والقدوس ، فإن الضم فيهما أكثر ، وقد يفتحان ﴿ **السلام** ﴾ أى الذى سلم من كل نقص وعيب . وقيل : المسلم على عباده فى الجنة ، كما قال : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ [يس : ٥٨] . وقيل : الذى سلم الخلق من ظلمه ، وبه قال الأكثر . وقيل : المسلم لعباده ، وهو مصدر وصف به للمبالغة ﴿ **المؤمن** ﴾ أى الذى وهب لعباده الأمن من عذابه . وقيل : المصدق لرسله بإظهار المعجزات. وقيل : المصدّق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب ، والمصدر للكافرين بما أوعدهم به من العذاب، يقال: أمنه من الأمن وهو ضد الخوف ، ومنه قول النابغة :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند [١]

وقال مجاهد: المؤمن الذى وحد نفسه بقوله : ﴿ شهد اللّه أنه لا إله إلا هو ﴾ [آل عمران: ١٨]. قرأ الجمهور : ﴿**المؤمن** ﴾ بكسر الميم ، اسم فاعل من آمن بمعنى : أمن ، وقرأ أبو جعفر محمد بن على بن الحسين بفتحها بمعنى : المؤمن به على الحذف كقوله : ﴿واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف : ١٥٥] . وقال أبو حاتم : لا تجوز هذه القراءة ؛ لأن معناه : أنه كان خائفا فأمنه غيره ﴿ **المهيمن** ﴾ أى الشهيد على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم ، كذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل، يقال: هيمن يهيمن فهو مهيمن : إذا كان رقيبا على الشىء . قال الواحدى : وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله مؤيمن من آمن يؤمن ، فيكون بمعنى المؤمن ، والأوّل أولى، وقد قدمنا الكلام على المهيمن فى سورة المائدة ﴿ **العزيز** ﴾ الذى لا يوجد له نظير. وقيل: القاهر . وقيل : الغالب غير المغلوب . وقيل : القوى ﴿ **الجبار** ﴾ جبروت اللّه : عظمته ، والعرب تسمى الملك الجبار ، ويجوز أن يكون من جبر : إذا أغنى الفقير وأصلح الكسير ، ويجوز أن يكون من جبره على كذا : إذا أكرهه على ما أراد ، فهو الذى جبر خلقه على ما أراد منهم ، وبه قال السدى ومقاتل ، واختاره الزجاج والفراء ، قال : هو من أجبره على الأمر ، أى قهره ، قال : ولم أسمع فعالا من أفعل إلا فى جبار من أجبر ، ودراك من أدرك . وقيل : الجبار : الذى لا تطاق سطوته ﴿ **المتكبر** ﴾ أى الذى تكبر عن كل نقص وتعظم عما لا يليق به ، وأصل التكبر: الامتناع وعدم الانقياد ، ومنه قول حميد بن ثور :

عفت مثل ما يعفو الفصيل فأصبحت بها كبرياء الصعب وهى ذلول

والكبر فى صفات اللّه مدح ، وفى صفات المخلوقين ذمّ . قال قتادة : هو الذى تكبر عن كل سوء . قال ابن الأنبارى : المتكبر: ذو الكبرياء ، وهو الملك ، ثم نزه سبحانه نفسه عن شرك المشركين ، فقال :﴿ **سبحان الله عما يشركون** ﴾ أى عما يشركونه أو عن إشراكهم به .

---

(١) العائذات : ما عاذ بالبيت من الطير ، والغيل : الكثير الملتف من الشجر ، والسند : ما قابلك من الجبل ، وعلا من السفح .

﴿ **هو الخالق** ﴾ أى المقدر للأشياء على مقتضى إرادته ومشيئته ﴿**البارئ**﴾ أى المنشئ المخترع للأشياء الموجد لها وقيل :المميز لبعضها من بعض ﴿ **المصوّر** ﴾ أى الموجد للصور المركب لها على هيئات مختلفة ، فالتصوير مترتب على الخلق والبراية وتابع لهما ، ومعنى التصوير : التخطيط والتشكيل . قال النابغة :

الخالق البارئ المصور فى الـ أرحام ماء حتى يصير دما

وقرأ حاطب بن أبى بلتعة الصحابى : « المصوّر » بفتح الواو ونصب الراء على أنه مفعول به للبارئ ، أى الذى برأ المصوّر ، أى ميزه ﴿ **له الأسماء الحسنى** ﴾ قد تقدم بيانها والكلام فيها عند تفسير قوله : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .﴿ **يسبح له ما فى السموات والأرض**﴾ أى ينطق بتنزيهه بلسان الحال ، أو المقال كل ما فيهما ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ أى الغالب لغيره الذى لا يغالبه مغالب ، الحكيم فى كل الأمور التى يقضى بها .

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل** ﴾ قال : يقول : لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدّع وخشع من ثقله ومن خشية اللّه ، فأمر اللّه الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . قال : كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون . وأخرج الديلمى عن ابن مسعود وعلى مرفوعا فى قوله : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل** ﴾ إلى آخر السورة قال : هى رقية الصداع ، رواه الديلمى بإسنادين لا ندرى كيف حال رجالهما . وأخرج الخطيب فى تاريخه بإسناده إلى إدريس بن عبد الكريم الحداد قال: قرأت على خلف ، فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك ، فإنى قرأت على حمزة فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك فإنى قرأت على الأعمش ثم ساق الإسناد مسلسلا هكذا إلى ابن مسعود فقال : فإنى قرأت على النبى ﷺ ، فلما بلغت هذه الآية قال لى : « ضع يدك على رأسك ، فإن جبريل لما نزل بها قال لى: ضع يدك على رأسك ، فإنها شفاء من كل داء إلا السام » والسام : الموت . قال الذهبى : هو باطل (١) . وأخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة ، وابن مردويه عن أنس ؛ أن رسول الله ﷺ أمر رجلا إذا آوى إلى فراشه أن يقرأ آخر سورة الحشر وقال : « إن متّ متّ شهيدا » .

وأخرج ابن مردويه عن أبى أمامة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من تعوذ باللّه من الشيطان ثلاث مرات ، ثم قرأ آخر سورة الحشر بعث اللّه سبعين ملكا يطردون عنه شياطين الإنس والجنّ إن كان ليلا حتى يصبح ، وإن كان نهارا حتى يمسى » . وأخرج أحمد والدارمى،

(١) الخطيب فى تاريخه ١/ ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

والترمذى وحسنه والطبرانى وابن الضريس ، والبيهقى فى الشعب عن معقل بن يسار عن النبى ﷺ قال : « من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل اللّه به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى ، وإن مات ذلك اليوم مات شهيدا ، ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة » . قال الترمذى بعد إخراجه : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه[1]. وأخرج ابن عدىّ وابن مردويه والخطيب ، والبيهقى فى الشعب عن أبى أمامة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من قرأ خواتيم الحشر فى ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته أوجب اللّه له الجنة » [2] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ قال : السرّ والعلانية . وفى قوله : ﴿ **المؤمن** ﴾ قال : المؤمّن خلقه من أن يظلمهم ، وفى قوله : ﴿ **المهيمن** ﴾ قال : الشاهد .

(١) أحمد ٥/٢٦ والدارمى ٢/٤٥٨ والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢٢) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » والطبرانى (٢٠/٢٢٩) والبيهقى فى الشعب (٢٢٧٢) وإسناده ضعيف .

(٢) ابن عدى فى الضعفاء ٣/٣١٨ والخطيب فى تاريخه ١٢/٤٤٤ والبيهقى فى الشعب (٢٢٧) وإسناده ضعيف.

obeikandl.com